تصـديـــر

(المنهج) صاحب المكانة الرفيعة، وجوهر العلم بلا نزاع، قفز فجأة وأحتل فى حياة المتخصصين وغير المتخصصين مكان الصدارة. فبعد أن كنا نتحدث منذ عهد قريب عن موضوعات الفكر والأدب أصبحنا الآن لا نكاد نتحدث ألا عن كيف نعالج موضوعات الفكر والأدب أو بالأحرى أصبحنا نتحدث عن المنهج وبنائه أو المنهج وخطواته. فعلى حين أنشغل الباحثون والنقاد فى القرن الماضى بموضوع البحث، جاء باحثوا هذا القرن لكى يعلنوا لنا أو لكى ينادوا على أقل تقدير بأن البحث الأدبى منهج أولا وقبل كل شىء، وكان طبيعيا أن يظهر فى آفاق الفكر المعاصر مناهج جديدة تتناسب مع روح هذا العصر، فكان أن قام المنهج الأمبريقى[1] ومنهج الأختبار، وتحقيق الفروض، ومنهج التفسير ومنهج العلية البنائية لكى يعلنوا أنهم وحدهم أصحاب الكلمة الأخيرة، ولم تلبث عبارة «منهج البحث» أن أصبحت عبارة شائعة يتحمس لها كل الباحثين والنقاد باعتبارها المفتاح العمومى للعلم والفلسفة، والأدب، والفكر، فالسؤال «ما المنهج الواجب اتباعه؟» أصبح سؤالا يفرض نفسه علينا لشعورنا بالحاجة إلى الأمساك بالنظام الذى يحكم الظاهرة الأدبية.

فالوصول إلى ذلك النظام الذى يحكم الظاهرة بأسلوب عصرى أصبح هو غاية كل باحث أو ناقد جاد، نظراً لأن محاولة وضع اليد على كيفية معالجة الظواهر أو الموضوعات الأدبية بأسلوب علمى يعنى أن نترك للعقل فهم الظاهرة والتأكد منها.

ولا نقصد بكلمة منهج هنا معناها الميتافيزيقى الفضفاض كلا نهائيا يصل لكافة الموضوعات والظواهر، فهذا الفهم ليس فهما علميا بكل ما تحمله هذه اللفظة من معنى، فلا تصبح كلمة «منهج» علمية إلا إذا فهمناها مرتبطة بموضوع أو ظاهرة

(١) هو المنهج الذى يعتمد على الواقع، أى يدرس ظواهر أدبية أو ثقافية قائمة فعلا فى الواقع.

محددة. فكل موضوع له منهج محدد، إذ لا يوجد منهج يشبه القالب الفارغ يمكن أن نصب فيه كافة الموضوعات. وعلى ضوء هذا الفهم ينبغى أن نؤكد أولا وقبل كل شيء على أن المنهج مرتبط بموضوع أو ظاهرة معينة وعلى هذا الأساس نرفض الحديث عن المنهج بصفة عامة مجردة.

ولا يسعنى فى ختام هذا التصدير إلا أن أشير إلى حقيقة هامة ألا وهى أن هذه الدراسة تضع مكانًا رئيسيًا للتجريب العلمى وتقيم له وزناً، وتبتعد بقدر الأمكان عن الصبغة التأملية التى تباعد بيننا وبين واقع الدراسة الأدبية نفسه. وهى محاولة ـ فيما نعلم ـ تتم لأول مرة فى لغتنا العربية أعنى تناول نظريات المناهج النقدية المعاصرة، من جهة وتخصيص مكان هام للتجريب العلمى من جهة أخرى.

مقدمة

أبتداء من عام ١٩٦٦ ، وحتى يومنا والدراسات الأدبية تندفع من مكانها الطبيعى لكى تجىء وتنضم إلى صفوف العلوم الإنسانية والتجريبية ، وتأخذ مفاهيم الفكر العلمى الحديث . فبعد أن كان الباحث ـ حتى عهد قريب ـ يحدثنا عن تذوق الأثر الأدبى وخصائصه أو متعته الجمالية ، أصبح الآن لا يكاد يتحدث ألا عن التحاليل أو التفاسير العقلية سواء كانت سوسيولوجية أو نفسية أو لغوية . وهكذا عرف مجال الدراسات الأدبية فى السنوات ما بين ١٩٦٠ وعام ١٩٦٦ ، مولد نظرة علمية جديدة للظاهرة الأدبية ، أطلق عليها دارسوا الأدب أسم (الوضعية الجديدة) . وعلى حين أعلن لوميتر ـ فى القرن الماضى ـ (الأنطباع الذاتى فى نقد الأدب) . جاء النقاد والباحثون البنائيون لكى يعلنوا عن موضوعية صارمة ولكى ينادوا بأن الظاهرة الأدبية ، ظاهرة أنثروبولوجية وكان طبيعيا أن تظهر فى آفاق الدراسات الأدبية ، التى أصبح المثل الأعلى فيها هو (بنيات الظاهرة) أو (دلالة البنيات) أو (النسق العام) ، نظرة جديدة تتناسب مع روح هذا العصر . فكان أن قامت التحاليل البنيوية لكى تعلن أن هى وحدها التى ينبغى أن تسود ميدان الدراسات الأدبية ، والنفسية ، والسوسيولوجية . . إلخ . ولا شك أن التطبيقات التى عرفها منهج التحليل البنائى هى التى جعلت مجال الدراسة الأدبية اليوم مجالا واسعا . فأصبح يقف جنبا إلى جنب مع غيره من مجالات العلوم الإنسانية والتجريبية .

ولكن من المؤكد ، أن مجال الدراسة الأدبية له ملامحه الخاصة ، يمكن للباحث إذا شاء أن يحددها ، على الرغم من أن هناك عناصر مشتركة تفرض نفسها عليه كما تفرض نفسها على الباحث فى مجالات العلوم الإنسانية أو التجريبية .

ولعل السبب فى شيوع التحليل البنائى فى الدراسات الأدبية، يرجع إلى شعور الباحث بالحاجة إلى الإمساك بوحدة الظاهرة الأدبية، ووضع يده على قوانينها. وتحديدها تحديداً يخضع لنظامه العقلى، وكأن ذلك المنهج الجديد هو السبيل الذى يضمن له فهم الظاهرة والسيطرة عليها.

ولا شك أن ذلك المنهج يعبر عن ذلك الكل الذى يرتبط بالأجزاء، لا على إنها وحدات منفصلة بذاتها، ولكن على إنها أعضاء فى ذلك الكل، كما يعبر أيضاً عن ضرورة النظر إلى الظاهرة الأدبية على أنها نظام أو نسق يجب على الباحث فهمه أو التوصل إلى معرفته. والفهم هنا يعنى رد نمط من الظواهر الأدبية إلى نمط آخر، معتبراً أن الدلالة الحقيقية للظاهرة الأدبية تكمن فى نظامها الخفى لا نظامها الظاهرى.

والحق أن ذلك المنهج يمكن الباحث من تحليل موضوعه تحليلاً علمياً دقيقاً، بدلاً من الأقتصار على وصفه وصفاً مباشراً وذلك من شأنه أن يفتح آفاق جديدة أمام دراسى الأدب ودارسى العلوم الإنسانية فى وقت معاً. نظراً لأن ذلك المنهج قادر على إيجاد الأسس العقلية التى تتفق مع العديد من المجالات، وعلى إجراء تغير عميق فى صميم معايير المعرفة.

ومهما أتفقنا مع بعض النقاد أو الباحثين القائلين بأن هذا المنهج يحيل الظاهرة الأدبية إلى مادة «إستاتيكية» ويرفع عنها كل عرضية تاريخية. فإن هذا الأتفاق لن يمنعنا من التسليم مع البعض الآخر، بأن المنهج البنائى يتكفل فعلا بتفسير العديد من الظواهر التى تدخل فى نطاق أختصاص علوم عديدة. كما أنه يستطيع أيضاً أن يخلص الدارس من كل مفاهيم ميتافيزيقية ويجعله يقف على أرض علمية صلبة، بالأستناد إلى مفاهيم علم اللغة، وبعض المفاهيم السوسيولوجية والنفسية من جهة أخرى، للوصول إلى أكتشاف القانون الذى يحكم نظام الأثر الأدبى، والوقوف على مجموع العلاقات القائمة فى ثنايا عناصره المختلفة.